الباب الثالث

العصر الأموى

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول :

الشـعـــر

كانـت القصـيدة في العصـر الأمـوى امتـدادا للعصـر الجـاهلي وعصـر صـدر الإسـلام . ومـن أهـم شـعراء العصـر الأمـوى : الفـرزدق وجريـر والأخطـل والشـريف الرضى وكثير عزة والخنساء وذو الرمة . وجميل بثينة . ومجنون ليلى . وقيس بن ذريـح . والكميـت . والطرمـاح . وعـروة بـن حـزام . ونصـيب بـن ربـاح . والمقنـع الكندى . والمثقب العبدى وغيرهم .

وقد رجح الباحثون إصابة الشعر العربي بالجمود والركود بعد ظهور الإسلام ؛ ذلك لأن الدوافع التي كانت تدفع الشعراء إلي قول الشعر في العصر الجاهلي قد اختفت . فقد حارب الإسلام العصبيات والمفاخرات والمنازعات بين القبائل ؛ لأن هذه الأشياء أصبحت تخالف روح الإسلام الذى دعا إلي مكارم الأخلاق . وإلي المحبة بين الناس . وإلي الفضيلة والإخاء . وبيّن أن التمايز بين الناس يكون بالتقوى والعمل الصالح . كذلك شُغل المسلمون عن الشعر وروايته بالفتوح الإسلامية . وما حققته من انتصارات وغنائم . وكذلك شغلوا بما جد من معارف إسلامية كالتفسير والمغازى والحديث والسّير .

ولم يطل أمد الركود الأدبي طويلا . فسرعان ما نهض الشعر في أماكن مختلفة من الدولة الإسلامية ؛ لنشوب الفتن الداخلية وظهور الأحزاب السياسية . ومن ثم رجعت العصبيات القبلية والعادات الجاهلية . وشاع الغناء والشراب

والمجون في بيئة البصرة ، والكوفة والحجاز والشام حيث نشأ جيل جديد من الشعراء ولد في ظل الإسلام ، وعاش في دولة الإسلام بما جدّ عليها ، فتأثر بتياراتها السياسية والاجتماعية والدينية وتأثر أيضا بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، فأنتجت هذه المجموعة شعرا إسلاميا ، عبروا فيه عن كل جوانب الحياة الإسلامية فأحسنوا التعبير عنها ، وأجادوا تصويرها ، وأضافوا أنواعا أدبية جديدة اقتضتها ظروف الحياة السياسية والاجتماعية كالغزل والسياسة والزهد والخمريات حتى قيل إن هذه الأنواع الأدبية قيلت لترضى ميول الجماهير ويؤيدنا في ذلك ما ذكره البغدادى عن "عكرمة الضبى" عن أبيه قال : أدركت الناس بالكوفة من لم يرو : طربت وما شوقا إلي البيض أطرب) فليس بشيعى ، ومن لم يرو : (ذكر القلب إلفه المهجورا) فليس بأموى ، ومن لم يرو : (هلا عرفت منازلا بالأبرق) فليس بمهلبى .

وقال ابن سلام :[1] "مات كثير عزة وعكرمة مولى ابن عباس في يوم واحد ، فاحتفلت قريش في جنازة كثير ، ولم يوجد لعكرمة من يحمله" .

فإذا تأملنا ما ذكره البغدادي لاتضح لنا شغف الكوفيين بشعر السياسة ، وقول ابن سلام يدلنا علي شغف الحجازيين بشعر الغزل ، وإعجابهم به إعجابا شديدا ، لأن هذا الفن خفف أثقالهم ، وصور آمالهم ، وأرضي نزعاتهم ، وقد تطورت القصيدة العربية في الكوفة والحجاز والشام في بنائها وأسلوبها ومعانيها ، وأوزانها ، وقوافيها ، فهى من حيث البناء تألفت غالبا من غرض واحد سواء أكان غزلا أم سياسة أم وصف خمر ، أم زهد ؛ ولذلك قل عدد أبياتها بالقياس إلي عدد

(١) طبقات الشعر والشعراء صـ١٢٤

أبيات القصيدة الجاهلية التي كانت عبارة عن عدة أغراض تبدأ بالمقدمات الطللية أو الغزلية ثم وصف الناقة ثم الرحلة وما تتبعه من مشقة ، ثم الغرض من القصيدة ، وبالتالي قصرت القصيدة حتى أصبحت في كثير من الأحيان عبارة عن مقطوعة شعرية من عدة أبيات ، ويظهر ذلك في شعر الخوارج وفي أشعار الغزليين.

ومن هنا ترك أغلب الشعراء في الكوفة والبصرة والحجاز والشام مقدمات النسيب التي كان الجاهليون يفتتحون بها قصائدهم ومثال ما قلناه قصيدة "الكميت الأسدى" التي يقول فيها :

مـــالى في الـــدار بعـــد ســـاكنها

ولـــــو تـــــذكرت أهلـــــها أربُ

يـــا بـــاكى التلعـــة القفـــار ولم

تبـــك عليـــه الـــتلاع والرحـــبُ

أبـــرح بمـــن كلـــف الـــديار ومـــا

تـــزعم فيـــه الشـــواحج التعـــبُ

وإذا تأملنا النص السابق نجد أن الشاعر قد سخر من النسيب والنسابين ، ومع ذلك فأسلوب القصيدة اتسم بالرقة والعذوبة كما غلب عليه الوضوح والجزالة وقد أحس المعاصرون من أهل البصرة بتطور أسلوب القصيدة في الحجاز والكوفة فقالوا إن في أسلوب الحجازيين لينا وسهولة ، وأحسوا أيضاً بأن في أسلوب بعض الكوفيين كالكميت والطرماح ميلا وانحرافا عن الأساليب العربية القديمة ؛ لاستعمالهما الغريب في غير موضعه ؛ ولتأثرهما بلغة السواد من الناس ، وأما

obeikandi.com

المعانى فيغلب عليها الجدّة والابتكار؛ لأنهم استمدوا موضوعات قصائدهم من مقومات الحياة الإسلامية . ونكتفي بذكر بعض المعاصرين لهؤلاء الشعراء والتي تبين ما أضافه الشعراء علي المعاني من جدة وابتكار.

قال عبد الملك بن مروان : يا معشر الشعراء تشبهوننا مرة بالأسد الأبخر . ومرة بالجبل الأوعر . ومرة بالبحر الأجاج . ألا قلتم كما قال أيمن بن خريمة في **بنى هاشم** :

نهـــــاركم مكابـــــدة وصـــــوم

ولـــــيلكم صـــــلاة واقـــــتراء

وفي كتاب الأغانى أنشد جرير قول عمر بن أبى ربيعة :

ســـائلا الربـــع بـــالبلى وقـــولا

هجـــت شـــوقا لى الغـــداة طـــويلا

وفي كتاب الأغانى أيضا سمع الفرزدق عمر بن أبى ربيعة ينشد :

جـــرى ناصـــح بـــالود بينـــى وبينهـــا

فقربنـــى يـــوم المصـــاب إلـــي قتلـــى

ولما بلغ قوله :

فقمـــن وقـــد أفهمـــن ذا اللـــب أنمـــا

أتـــين الـــذى يـــأتين مـــن ذاك مـــن أجلـــي

صاح الفرزدق : هذا والله الذى أرادته الشعراء فأخطأته وبكت علي الديار .

وإن كانت هذه الآراء انطباعية إلا أنها بينت تطور الأسلوب وجدة المعانى .

أما التجديد في الأوزان والقوافى فقد كان كثيرا . فبينما كان شعراء البصرة يسيرون علي نمط الأوزان الجاهلية القديمة نجد شعراء الكوفة والشام والحجاز يجنحون إلي استعمال الأوزان النادرة كالمديد والأوزان القصيرة كالمتقارب والخفيف والرمل ومجزوء الكامل .

ونظرة سريعة في أشعار عمر بن أبى ربيعة . وعبيد الله بن قيس الرقيات . والوليد بن يزيد ترينا مقدار هذا التطور في الأوزان . وكما تطورت الأوزان تطورت القوافي إذ مال الشعراء إلي استعمال الحروف اللينة والرخوة والتي لها إيقاع موسيقي ساحر في قوافيهم .

يقول ابن قيس الرقيات :

إن الحوادث بالمدينة قد

أوجعتنى وقرعن مروتيه

وجببننى جب السنام ولم

يتركن ريشا في مناكبيه

وقد تأثر في قافيته بقول الحق سبحانه وتعالى :

"ما أغنى عنى ماليه , هلك عنى سلطانية" .

ويتوقف مؤرخو الأدب العربي عند شعراء الغزل في بداية العصر الأموى مثل قيس وليلي ، وقيس ولبنى ، وجميل وبثينة وغيرهم ، ويعدونهم مدرسة أدبية متميزة في تاريخ الأدب العربي ، فمعظم الأدب العربي عندما يقترب من المرأة يقترب منها جسدا كوصف الأعشى وامرئ القيس في معلقتيهما وكوصف عمر بن أبى ربيعة وعبيد الله بن قيس الرقيات والعرجى وغيرهم لمحبوباتهم في عصر بنى أمية ،

وإذا أخذنا نماذج من شعر هذه المدرسة نجدهم قد تخلصوا من المقدمات وانتقلوا مباشرة إلي الغرض من الموضوع فأصبحت قصائدهم في أغلبها مقطوعات قصيرة تحققت فيها الوحدة العضوية .

يقول قيس بن ذريح :

وما أحببت أرضكم ولكن

أقبل إثر من وطئ الترابا

لقد لاقيت من كلفى بليلى

بلاءً ما أسيغ به الشرابا

إذا نادى المنادى باسم ليلي

عييت فما أطيق له جوابا

فهذا فعل شبحينا جميعا

أرادا لى البلية والعذابا

obeikandl.com

ويقول كثير عزة :

ولمـــا رأت وجـــدى بهـــا وتبينـــت

صـــبابة حـــران الصـــبابة صـــادِ

أدلـــت بصـــبر عنـــدها وجـــلادة

وتحســـب أن النـــاس غـــير جـــلادِ

فيـــاعزّ صـــادى القلـــب حتـــى يـــودنى

فـــؤادك أو ردّى علـــىّ فـــؤادي

وقد حفل العصر الأموى بالشعر السياسي خاصة بعد ظهور الأحزاب السياسية من أموى وشيعى ومهلبى . كما حفل أيضا بشعر النقائض التي غلب عليها التقليد والمحافظة . وإرضاء النقاد بالسير علي نظام القصيدة الجاهلية وعناصرها وذلك لأن جميع قصائد جرير وأهم قصائد الفرزدق كانت تتألف من عدة أغراض . فقد كان الشاعران غالبا ما يفتتحان نقائضهما بالنسيب والبكاء علي الأطلال والشكوى من التعب والسير وإنضاء البعير ثم يعقبان علي ذلك بالغرض من القصيدة سواء أكان الغرض فخرا أم مدحا أم رثاء أم هجاء أم وصف مشاهد البادية أو وصف المعارك . والأمثلة علي ذلك كثيرة ففى المثال الذى سنذكره نرى الفرزدق ينسب ويشبب ويبكى الطلول ويصف لهوه القديم .

obeikandl.com

يقول الفرزدق :

ألســـتم عـــائجين بنـــا لعنـــا

نـــرى العرصـــات أو أثـــر الخيـــامِ

فقـــالوا إن فعلـــت فـــأغن عنـــا

دموعـــا غـــير راقيـــة الســـجامِ

فكيـــف إذا رأيـــت ديـــار قـــوم

وجيرانـــا لنـــا كـــانوا كـــرامِ

أكفكـــف عـــبرة العيـــنين منـــى

ومـــا بعـــد المـــدامع مـــن كـــلامِ

ثم يصف راحلته وما أصابها من ضعف وهزال وما سينالها من خير علي يدى الخليفة :

أقـــول لهـــا إذا عطفـــت وعضـــت

بموركـــة الـــوراك مـــع الزمـــامِ

إلام تلفـــتين وأنـــت تحتـــى

وخـــير النـــاس كلـــهم أمـــامي

متـــى تـــأتى الرصـــافة تســـتريحى

مـــن الـــتهجير والـــدبر الـــدوامى

ويُلقـــى الرحـــل عنـــك وتســـتغيثى

obeikandl.com

بمـــــلء الأرض والملـــــك الهمـــــام

ثم ينتقل بعد ذلك إلي المديح ثم الهجاء الذى يختتم به النقيضة .

وقد التزمت النقائض أكثر البحور دورانا في الشعر الجاهلي كالطويل والكامل والوافر والبسيط والمتقارب والرجز . والملاحظ أن أغلب معانى النقائض استمدت من الأدب الجاهلي سواء كان الأدب شعرا أم أمثالا أم قصصا . وقد اعترف الفرزدق نفسه بأنه تتلمذ علي يد امرئ القيس والمخبل السعدى وعلقمة الفحل والأعشى ولبيد وزهير فيقول :

وهب القصائد لي النوابغ إذ مضوا

وأبو اليزيد وذو القروح وجرول

والفحل علقمة الذى كانت له

حلل الملوك . كلامه لا ينحل

وأخو بنى قيس وهن قتلنه

ومهلهل الشعراء ذاك الأول

والأعشيان كلاهما ومرقش

وأخو قضاعة قوله يتمثل

وقد تأثرت النقائض أيضا ببداوة الأسلوب لإعجاب اللغويين بالشعر الحوشى وتقديمهم قائليه علي غيرهم ؛ لهذا نشأ عند الفرزدق وجرير ميلا شديدا إلي مجاراة أساليب القدماء البدوية مما جعل نقائضهما تمتلئ بالألفاظ الغريبة

والمهجورة كما استمدا من البيئة الصحراوية بداوة الخيال ، فسارت تشبيهاتهما علي النحو الذى نراه متبعا في الشعر الجاهلى ، وبذلك فرض الشعر القديم نفسه علي كبار الشعراء عن طريق النقاد الذين فرضوا منهج القصيدة القديمة من حيث الأسلوب والمعانى والتشبيهات ، وبذلك خضع شعراء البصرة للنحاة في البيئة البصرية ، فغلب علي شعرهم التقليد والمحافظة علي النهج القديم ، بينما غلب علي شعراء الحجاز والكوفة والشام التجديد في قصائدهم .

ولعل نشوء فن المديح وازدهاره كان بسبب العصبيات القبلية والمفاخرات والخصومات العنيفة ، ومواسم المربد ، وتنافس الشعراء فيها ، ودور الحكام وإحيائهم للعصبيات ، كل ذلك كان سببا في نشوء فنون الفخر والهجاء والحماسة وغير ذلك من الأغراض الجاهلية .

وقد يكون من أسباب تجديد الشعر في الألفاظ والمعاني والأسلوب والتشبيهات في الشام والكوفة والحجاز والمدينة هو تحول المجتمع العربى إلي مجتمع مدني ، ومن مجتمع صيد ورعى إلي مجتمع تجارة وثراء فعمر بن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات من قريش والعرجى من أثرياء ثقيف والأحوص من الأنصار .

وبذلك تغير شكل القصيدة عند هؤلاء لفظا ومعنى وخيالا ، وانعكست ظاهرة الثراء علي ألوان الشعر ومنها شعر الغزل .

يقول عبيد الله بن قيس الرقيات :

ألا هزئت بنا قرشية يهتز موكبها

رأت بى شيبة في الر أس منى ما أغيبها

لهـــــا بعـــــل غيورقـــــا عـــــد بالبـــــاب يحجبهـــــا

يرانـــــى هكـــــذا أمشـــــى فيوعـــــدها ويضـــــربها

ظللـــــت علـــــي نمارقهـــــا أفـــــديها وأخلبهـــــا

أحـــــدثها فتـــــؤمن لـــــي فأصـــــدقها وأكـــــذبها

فلمـــــا أن فرحـــــت بهـــــا ومـــــال علـــــي أعـــــذبها

شـــــربت بريقهـــــا حتـــــى نهلـــــت وبـــــت أشـــــربها

وأضـــــحكها وأبكيهـــــا وألبســـــها وأســـــلبها

فكانـــــت ليلـــــة في النـــــو م نســـــمرها ونلعبهـــــا[1]

وإذا نظرنا إلي المقطوعة وتأملناها نجد أنها تعبر عن مجتمع الأثرياء اللاهين الذين يمزجون الترف بالشهوة ، والشهوة بالفن ، وقد قرن فيها الشاعر اللهو بعذب الحديث ، بل وأيضاً بالغناء ، وقد شجع الخلفاء هذا الاتجاه حتى ينشغل الناس عن نظام الحكم في هذه الآونة ، فيتركون السياسة إلي اللهو ، وإلي إرضاء مستمعيهم بما يلذ لهم عوضا عن التعبير عن مكنون أنفسهم ، وأصبح الغزل مقصدا في ذاته لا تمهيدا للقصيدة ، وأصبحت القصيدة عند شعراء الشام والحجاز والكوفة والمدينة تدور في غرض واحد ، وبالتالي أصبح الشعر حرفة وصناعة يلجأ فيها الشاعر إلي التجديد والتحسين .

(١) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات .

اتجاهات الشعر في العصر الأموى

الاتجاه الأول :

السير علي منهج القصيدة الجاهلية في الحديث عن المقدمة الطللية أو المقدمة الغزلية أو وصف الخمر ثم الحديث عن الناقة القوية التي تتغلب علي مشاق السفر ثم الرحلة في الصحراء ثم الغرض من القصيدة وكان علي راس هذا الاتجاه الفرزدق وجرير، وتبنى هذا الاتجاه شعراء البصرة ، وكان للنقاد الدور الكبير في السير علي هذا النهج . فقد حاربوا كل من خرج علي عمود الشعر الجاهلي . واستظل بظلهم من سار علي منهجهم .

الاتجاه الثاني :

تطوير القصيدة وإن كان هذا التطوير قد بدأ في العصر الجاهلي وخاصة المقطوعات وقصائد الرثاء والوصف وبعض قصائد الغزل كغزليات المرقش الأكبر والمرقش الأصغر ومن سار علي منوالهما . وقد كان لحرفية الشعراء الدور الأساسي في صناعة الشعر مما دعاهم إلي التجديد في الموضوعات والتحسين في الأداء . وقد انصب الدور الأساسي في ذلك إلي شعراء الحجاز والمدينة والكوفة والشام وقلنا إن المجتمع قد تحول من مجتمع صيد ورعى وزراعة إلي مجتمع مدنى يميل إلي الترف واللهو وبذلك عبر الشعراء بعذوبة عن هذه الفترة .

obeikandl.com

الاتجاه الثالث :

تشجيع الخلفاء للشعراء على شعر اللهو والمجون والغزل حتى ينشغل الناس عن نظام الحكم فيتركون السياسة وينشغلون باللهو وبالتالى أصبح الشعر حرفة للشعراء .

أغراض الشعر في عصر بني أمية

أولا شعر المديح :

حرص الشعراء منذ العصر الجاهلي أن يشيدوا بخصات أشرافهم وذوي النباهة فيهم ، وكان السيد لا يعد سيدا إلا إذا ذاع صيته بين القبائل ، ومضوا على ذلك في عصر صدر الإسلام ،ولكن الأمر تطور إلى أكثر من ذلك في عصر بني أمية ، فمدح الشعراء الخلفاء والأمراء والولاة وأصحاب الشرطة والعاملين على الخراج، ومن أعلام شعراء المديح :نصيب ،والقطامي ،

يقول نصيب في مدح عبد العزيز بن مروان :

فبشر أهل مصـــــر فقد أتاهم مع النيل الذي في مصر نيل

يقول فيحسن القول ابن ليلى ويفعل فوق أحسن ما يقول

ويقول القطامي في مدح عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك :

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالت بك الطيل

ويقول في مدح ابن خارجة الفزاري :

إذا مات ابن خارجة بن حصن فلا هطلت على الأرض السماء

ولا رجـــع البريـــد بأي خـير ولا حملت على الطهر النساء

وإذا تتبعنا شعر القطامي فسنجد أهم ما يميزه صفاء موسيقاه ،وحلاوة ألفاظه ،وعذوبة أنغامه ،وتمكن قوافيه ، وجودة مطالعه .

ثانيا : شعر الهجاء والنقائض :

احتدم الهجاء في هذا العصر بتأثير العصبيات التي احتدمت في كل مكان ونشوب الحروب الكثيرة بين على- كرم الله وجهه – وخصومه ، وعملت بجانب العصبيات أسباب كثيرة منها : وقوف شاعر في تهاجيه مع شاعر آخر، حينئذ يرميه بسهام هجائه ،على نحو ما هو معروف عن جرير والفرزدق ، كذلك مفاضلة أحد الولاة بين من يمدحونه فيذم الشاعر المفضل ،والممدوح معا ، وقد يبطيء الممدوح على مادحه بمكافأته ، فيتحول إلى هجائه ، وقد يحرم ممدوحا مادحا من عطائه ، فيسرع إلى هجائه.

يقول أعشى همدان في هجاء خالد بن عتاب والي الري وأصبهان :

ويركب رأسه في كل وحل ويعثر في الطريق المستقيم

وكما كانت العصبيات عاملا مهما في عودة شعر الهجاء في هذا العصر ، فإنها كانت عاملا مهما في وجود فن النقائض ، وساعد على نموها بجانب العصبيات أسباب كثيرة بعضها عقلي ، وبعضها اجتماعي.

ومن أهم من وقفوا أنفسهم على تنمية هذه النقائض : جرير والفرزدق ، وقد تكاملت حلقات المناظرات العنيفة بين الشاعرين ، وكان لكل منهما فريق ينحاز له، يقول جرير في هجاء الراعي النميري وكان من مناصري الفرزدق :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ولم يلبث الراعي بعد سماع القصيدة أن انصرف من مجلس الفرزدق إلى قومه ، وهو يقول : فضحنا والله جرير. وهذا يدل دلالة واضحة على قدرة جرير على الهجاء ، وعلى قدرته على هزيمة من يقفون ضده ، ولذلك قيل بأنه أسقط في الهجاء ثلاثة وأربعين شاعرا ، وقالوا بل أكثر من ثمانين . وكان من الذين اشتبكوا معه الأخطل ن وفي الحق كان الفرزدق أهم شاعر اشتبك معه جرير،

ولم تكن النقيضة تحوي فخرا وهجاء فقط ، بل كانت تحوي بجانبيهما على المديح والنسيب والغزل ،

من نقيضة للفرزدق يهجو جريرا:

ولو ترمي بلـؤم بني كليب نجوم الليل ما وضحت لسار

ولو يرمي بلؤمـهم نـهار تدنس لؤمهم وضح النهـار

وما يغدر عزيز بني كليب ليطلب حاجة إلا بجـار

ويرد علي نقيضته جرير بنقيضته، فمضى بعد غزلها يتحدث عن الفرزدق وفسقه الذي اشتهر به ، ***فيقول*** :

لقد ولدت أم الفرزدق فاجرا وجاءت بوزواز قصـير القوادم

وما كان جار للفرزدق مسلم ليأمن قـرد ا ليلة غير نائـم

أتيت حدود الله إذ أنت يافع وشبت فما ينهاك شيب اللهازم

تتبع في الماخور كل مريبـة ولست بأهل المحصنات الكرائم

وكان جرير يعرف كيف يستخرج التفوق من كل شيء ، ومما غاظه انضمام الأخطل النصراني إلى الفرزدق ضده ، فأخذ يُضحك كل من في المربد من الشعراء عليهما ***بقوله*** :

وإنك لو تعطي الفرزدق درهما على دين نصرانية لتنصرا

وقوله أيضا :

تحبك يوم عيدهم النصارى ويوم السبت شيعتك اليهود

ومع ذلك عندما مات الفرزدق رثاه جرير رثاء حارا قال فيه :

ولا حملت بعد الفرزدق حـــــرة ولا ذات حمل من نفاس تعلت

هو الوافد المجبور و الحامل الذى إذا النعل يوما بالعشيرة زلـــت

وكما اصطدم الفرزدق بجرير ، اصطدم الأخطل به ، وربما كانت نقيضة " خف القطين " من أروع نقائضه مع جرير ، فنراه يستهلها بالغزل ، ووصف حزنه لفراق أحبته ، ويصف الخمر وصفا قصيرا ، وانتقل بعد ذلك إلى وصف ظعن الحبيبة، ثم انتقل بعد ذلك إلى مدح عبد الملك بن مروان ، ومضى بعد ذلك يهجو جريرا وعشيرته كليبا هجاء مقذعا قال فيه :

حَفَّ القَطينُ فَراحوا مِنكَ أَو بَكَروا وَأَزعَجَتهُم نَوىً في صَرفِها غِيَرُ

وقال أيضا :

أما كليب بن يربوع فليـــس لهـم عند المكارم لا ورد ولا صـــــدر

مخلفون ويقضي الناس أمـــرهـم وهم بغيب وفي عمياء ما شعروا

ملطمون بأعفار الحياض فمـــا ينفك من دارمي فيهم أثـــر
على العيارات هداجون قد بلغت نجران أو حدثت سوآتهم هجـر

فيرد عليه جرير مفتخرا عليه بانتصار قيس – قبيلة الشاعر – عليهم في الجاهلية :

لم يخز أول يربوع فوارســـهم ولا يقال لهم كلا إذا افتخـــروا
نحن اجتبينا حياض المجد مترعة من حومة لم يخالط صفوها كدر
خابت بنو تغلب إذ ضل فارطهم حوض المكارم إن المجد مبتـــدر

ومن الواضح أنه كان يرد على نقيضة الأخطل معنى معنى، فيمضي قائلا :

رجس يكون إذا صلوا أذانهـــم قرع النواقيس لا يدرون ما السور
وما لتغلب إن عدت مساعيهـــا نجم يضيء ولا شمس ولا قمـــر
الضاحكين إلى الخنزير شهوتـــه يا قبحت تلك أفواها إذا اكتشروا
والمقرعين على الخنزير ميســـرهم بئس الجزور وبئس القوم إذ يسروا
جاء الرسول بدين الحق ما انتكثوا وهل يضير رســـول الله أن كفروا

ويقول في نقيضة أخرى:

إن الذي حرم المكـــارم تغلبا جـــعل النبوة والخلافة فينا
مضر أبي وأبو الملوك فهل لكم يا خزر تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلي قطينـا

ومن طريف ما رواه أصحاب السير، ورواة الأخبار أن الأخطل حين حضره الموت قيل له : ألا توصي ؟ **قال على الفور :**

أوصي الفرزدق عند المات بأم جرير وأعيارها

ولم يكد يسمع بذلك جرير حتى رد عليه ببيت من وزن البيت السابق وقافيته ، ***قال فيه*** :

زار القبور أبو مالك فكان ألأم زوارها

وعموما كان جرير يتفوق دائما على خصومه جميعا في الهجاءوقد شهد الأخطل له بذلك إذ قال للفرزدق :إن جريرا أوتي من سير الشعر ما لم تؤته ، فالمسألة إذن لم تكن هجاء حاداوإقذاعا وسبا ، بل كانت مناظرة فنية بالشعر بين ثلاثة من رواد هذا الفن الذي يعد جديدا في الشعر العربي، هذابالإضافة إلي أنهم كانوا من أعلام شعر المديح والفخر في العصر الأموي.

الفصل الثانى :

النثر في العصر الأموى

لم يزد النثر في العصر الأموى عما كان عليه أيام الخلفاء الراشدين وقد تمثل النثر في مظهرين الخطابة والكتابة ولم يزد عليهما مظهر آخر . وقد بقى كل نوع منهما علي حالته التي كان عليها . فها هى الخطابة واقفة عند حدها التى عرفت بها في عهد صدر الإسلام . يتعهدها ولاة الأمويين عند مجيئهم إلي الأمصار معلنين ولايتهم ثم يتعهدونها في كل يوم جمعة واعظين مذكرين . وهم في جل خطبهم يحذرون الناس من الفتنة داعين إلي اجتماع الكلمة . كذلك إعلان الرأى وتحميس الجند في وقت الحرب كان للخطابة دورها السياسي والاجتماعي والدينى وقد حافظ الخطباء علي عادات الخطابة القديمة من اعتجار العمامة . والاشتمال بالرداء . واتخاذ المخصرة . والوقوف على مكان عال . والاعتماد علي قوس في وقت الحرب . وعلي عصا في وقت السلم . وتعتبر الخطابة في هذا العصر امتدادا لعصر صدر الإسلام وقد استعان الخطباء في خطبهم بآيات القرآن الكريم وأحاديث النبي r ، وخطباء بنى أمية كثيرون منهم معاوية بن أبى سفيان . وزياد بن أبيه . والحجاج بن يوسف الثقفى . وعتبة بن أبي سفيان وموسى بن نصير وطارق بن زياد وغيرهم . ...

ولنأخذ بعض نماذج الخطابة في هذه الفترة :

النموذج الأول :

خطبة لمحمد بن أبي بكر :

لما كتب عمرو بن العاص يهدده ويدعوه إلي التسليم وكان واليا علي مصر من قبل علي بن أبي طالب t رد عليه واشتد في رده ثم قال خطيبا :

" **أما بعد** .. فإن القوم الذين ينتهكون الحرمة ويشبون نار الفتنة . قد نصبوا لكم العداوة . وساروا إليكم بجيوشهم . فمن أراد الجنة فليخرج ليجاهدهم في الله . انتدبوا مع كنانة بن بشر" .

يقول صاحب كتاب النجوم الزاهرة :

فانتدب الناس معه وخرجوا للقاء القوم .

إذا تأملنا النص فسنجده يميل إلي بساطة الأسلوب وإلي وضوح المضمون . وكذا الايجاز والنفاذ إلي غرضه . وقلة الصور وأساليب الزخرف .

obeikandl.com

النموذج الثاني

خطبة لعتبة بن أبي سفيان :

لما قدم عتبة إلي مصر سنة ٤٣هـ أقام بها شهرا ثم خرج منها وافدا علي أخيه معاوية بدمشق ، واستخلف علي مصر عبد الله بن قيس ، وكان فيه شدة فكرهه الناس بمصر ، فبلغ ذلك عتبة فرجع إلي مصر وصعد المنبر ولم يبدأ الخطبة كما بينا بالحمد لله والثناء عليه ثم الصلاة علي النبي r ثم موضوع الخطبة ثم الختام ، ولكننا سنلاحظ أنه دخل في الموضوع مباشرة ، فقال :

"يا أهل مصر تعذرون ببعض المنع منكم ، لبعض الجور عليكم ، وقد وليكم من قال فعل ، فإن أبيتم درأكم بيده ، فإن أبيتم درأكم بسيفه ، ثم جاء في الآخر ما أدرك في الأول . إن البيعة شائعة ، لنا عليكم السمع والطاعة ، ولكم علينا العدل ، فأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه" .

يقول صاحب كتاب النجوم الزاهرة :

فناداه المصريون من جنبات المسجد : سمعا سمعا ، فناداهم عتبة عدلا عدلا ثم نزل .

والملاحظ في النص وضوح المعاني وسلامة الألفاظ ، وقلة الصور ، كما يلاحظ جزالة اللفظ وترابط الفكرة وتسلسلها ، وبساطة التعبير ، والإيجاز ، والاعتماد علي الموازنة والازدواج وبعض المحسنات البديعية كالسجع والطباق ؛ لأن الخطيب في حاجة إلي تغيير الأثر النفسي الذى تركه عبد الله بن قيس .

النموذج الثالث

من خطبة معاوية بن أبي سفيان حين قدم المدينة بعد مصالحة الحسن بن علي t عام ٤١هـ.

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

"**أما بعد** . فإنى والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم . ولا مسرة بولايتى ؛ ولكن جالدتكم بسيفى هذا مجالدة . ولقد رضت لكم نفسي علي عمل ابن أبى قحافة وأردتها علي عمل عمر فنفرت من ذلك نفارا شديدا . وأردتها علي سُنيات عثمان فأبت علىّ. فسلكت بها طريقا لى ولكم فيه منفعة ؛ مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة . فإن لم تجدونى خير لكم . فإنى خير لكم ولاية . والله لا أحمل السيف علي من لا سيف له . وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك له دَبْرَ أذنى وتحت قدمى . وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله فاقبلوا منى بعضه . فإن أتاكم منى خير فاقبلوه ؛ فإن السيل إذا جاء أثْرَى . وإن قلّ أغنى . وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة"

والخطبة كما نرى تميزت بجزالة اللفظ ومتانة الأسلوب اعتمد فيها علي الازدواج والسجع والموازنة . الصور قليلة والمحسنات غير متكلفة . والمعنى واضح بدأها بالحمد لله والثناء عليه ثم تحدث في غرضه بوضوح . تتميز الخطبة بالترابط فقد أراد أن يبين أنه لن يسير علي خط من سبقه بل له طريقه وطريقته التى يحكمهم بها .

النموذج الرابع

ـ خطبة البرّاء لزياد بن أبيه حين قدم واليا علي البصرة ـ قبل معاوية :

"**أما بعد** ، فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء والغيّ الموفىَ بأهله علي النار. ما فيه سفهاؤكم ويشتمل علي حلماؤكم من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب العظيم لأهل معصيته ، في الزمن السرمدى الذى لا يزول أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية علي الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه ؛ من تركككم الضعيف يُقهر ، ويؤخذ ماله ، ما هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر ، ... ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرم الإسلام ، ... حرام علي الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماء وإحراقا ، إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله ... وإنى أقسم بالله لآخذن الوَلى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطبع بالعاصى ، والصحيح بالقسيم ؛ حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انجُ سعد فقد هلك سعيد"

ثم يختم خطبته بقوله :

"وايُم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة ؛ فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى" .

اعتمد زياد في خطبته علي الإرهاب والوعيد وقد ساق خطبته في أسلوب جزل كثرت فيه الموازنة والازدواج والسجع . وقد اكتفينا ببعض أجزاء الخطبة فهى خطبة طويلة عنيفة تحتاج دراسة مستفيضة في أسلوبها وألفاظها ومغزاها .

النموذج الخامس

خطبة عبد الله بن الزبير بعد أن قتل أخوه مصعب :

الحمد لله الذى له الخلق والأمر وملك الدنيا والآخرة يعز من يشاء ويذل من يشاء ألا إنه لم يَذلَّ والله من كان الحق معه . وإن كان مفردا ضعيفا . ولم يعز من كان الباطل معه . وإن كان في العدة والعدد والكثرة . إنه قد أتانا خبر من العراق بلد الغدر والشقاق ؛ فساءنا وسرنا ؛ أتانا أن مصعبا قُتل . رحمة الله عليه ومغفرته . فأما الذى أحزننا من ذلك فإن لفراق الحميم لذعة يجدها حميمه عند المصيبة . ثم يرعوى بعد ذو الرأى والدين إلي جميل الصبر . وأما الذى سرنا منه فإنا قد علمنا أن قتله شهادة له . وأنه عزّوجلّ جاعل ذلك لنا وله ذخيرة إن شاء الله تعالى .

إن أهل العراق أسلموه . وباعوه بأقل ثمن . لقد قُتل أبوه وعمه وأخوه وكانوا خيار الصالحين . إنا والله ما نموت حتف أنوفنا . ما نموت إلا قتلا . قعصا بالرماح وتحت ظلال السيوف . وليس كما يموت بنومروان والله ما قتل منهم رجل في جاهلية ولا إسلام قط . وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذى لا يزول سلطانه

ولا يبيد ملكه ، فإن تقبل الدنيا علىّ لا آخذها أخذ الأشر البطر ، وإن تدبر عنى لا أبكِ عليها بكاء الخرف المهين" .

النموذج السادس

خطبة للحجاج بعد ولايته علي العراق :

قد شمرت عن ساقها فشدوا

وجدت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيها وتر عرد

مثل ذراع البكر أو أشد

لابد مماليس منه بد

إنى والله يا أهل العراق لا يغمز جانبى كتغماز التين ،ولا يقعقع لى بالشنان ، وأن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا ، وأصلبها مكسرا ، فرماكم بى ، أماو الله لألحونكم لحو العصا ، ولأفرعنكم فرع المروءة ، ولأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل .

والخطبة سارت في شدتها علي نسق خطبة البتراء لزياد بن أبيه ، وقد سارت علي نمط الخطب في عصره والخطبة تتميز بشدة الأسر وقوة العبارات وجزالة اللفظ ، تكثر فيها عبارات الازدواج ، استخدم بعض الصور من البيئة ، كما استشهد فيها بالشعر الذى يخدم غرضه ، والمحسنات التى استخدمها بعيدة عن التكلف . والخطب التى طرحناها موجزة وهى مع إيجازها بليغة جامعة .

obeikandi.com

أما الكتابة الفنية فهى جديدة علي البيئة العربية ، وخاصة الرسائل التى كانت في البداية امتدادا لعصر صدر الإسلام ثم أخذت تتدرج في طريق النضج حتى أينعت في عصر بنى أميه وبخاصة في أخريات هذا العصر علي يد الأديب عبد الحميد بن يحيى الكاتب المشهور ، وبذلك وجدنا آفاقها تتسع ، ودواعيها تتنوع وتتعدد ، مما اقتضى أن يخصص لها ديوان عرف بديوان الرسائل ، وكان له أكبر الأثر في إنضاجها ، وبروز عنصر الخيال فيها .

obeikandl.com

نموذج للرسائل

كتب عبد الحميد بن يحيى رسالة إلي الكتّاب فقال :

"**أما بعد** ... حفظكم الله يا أهل هذه الصناعة , وحاطكم ووفقكم , وأرشدكم , فإن الله **U** جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين – صلوات الله عليهم أجمعين – ومن بعد الملوك المكرمين _ أصنافا وصرفهم في صنوف الصناعات التي سبب منها معاشهم . فجعلكم – معشر الكتاب – في أشرفها صناعة فأنتم أهل الأدب والمروءة والحلم والروّية , وذوى الأخطار والهمم , بكم ينظم الملك , وتستقيم للملوك أمورهم , وبتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم , يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه , والوالى في القدر السنىّ والدنىّ من ولايته . لا يستغنى عنكم منهم أحد , فموقعكم منهم موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون , وألسنتهم التي بها ينطقون .

فنافسوا – معشر الكتاب – في صنوف العلم والأدب , وتفقهوا في الدين , وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل , والفرائض , ثم العربية , وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم , وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيّها ودنيّها" .

إذا تأملنا الرسالة نجد أنها اشتملت علي أفكار مرتبة وألفاظ سهلة , ومعان واضحة , وعبارات مكتملة البناء منسابة التعبير , جميلة رائعة , وقد اعتمد الكاتب فيها علي التصوير البيانى كما استعمل بعض المحسنات البديعية لإبراز المعنى وتوضيحه , كما نوّع بين الأسلوب الخبري والإنشائي ليكسب الكلام حيوية وقوة ، ويكون أكثر نفاذا إلى العقول والصدور.

الخصائص الفنية للنثر الأموى

بلغت الخطابة والكتابة منزلة عظيمة في العصر الأموى بسبب الفتن والحروب الكثيرة التى أشعل نارها الشيعة والخوارج ومن خرجوا علي حكمهم وهددوا دولتهم لذلك نال النثر الأدبي الكثير من التطور أكثر مما نال الشعر.

- أما الخطابة فقد زادت دواعيها , واشتدت الحاجة إليها بسبب الثورات التى قامت , وبسبب تعدد المذاهب الدينية والأحزاب السياسية وتطاحنها , وبسبب امتداد الفتوحات الإسلامية حتى وصلت عند جبال البرانس غربا وبالقرب من القسطنطينية شمالا والهند والصين شرقا كل ذلك كان يتطلب من الخلفاء والولاة وقواد الجيوش , وزعماء الأحزاب أن يخطبوا خطبا بليغة قوية التأثير حتى تحقق غرضها في استمالة المخاطبين.

وقد أكثر الخطباء من الاقتباس من القرآن الكريم وضمنوا خطبهم بعض الحكم والأمثال كما لجأ خطباؤهم من الحكام إلي أساليب التهديد والوعيد لخصومهم , والتمثيل ببعض أبيات الشعر التي تعزز هذا الغرض , كما حرص الخطباء علي اختيار الألفاظ , وترابط الأفكار , ووضوح المعانى , وحسن تقسيم الجمل بحيث تعطى العبارات جرسا موسيقيا يتناسب مع موضوع الخطبة.

- وأما الكتابة فقد تطورت عن الكتابة في صدر الإسلام , وقد نضجت واكتمل نموها في نهاية عصر بنى أمية لاتساع شئون الدولة , وتعدد الدواوين , وحاجة الخلفاء إلي مكاتبة الولاة وقادة الجيوش , وقد كان للكتاب الكبار الذين تولوا

ديوان الرسائل وخاصة عبد الحميد بن يحيى أياد لا تنكر في كل ما حققته الكتابة الفنية من رقى وازدهار في هذا العصر.

وقد كان للكتابة دورها في تسيير دفة الحكم لذلك اهتم الكتاب في كتابتهم الديوانية والدينية ورسائلهم الإخوانية بجمال الصياغة ، وتخير الألفاظ وتجويدها كما اقتبسوا في كتابتهم كثيرا من معانى القرآن وعباراته وصوره ، وأدخلوا في كتابتهم ما استحسنوه من تشبيهات الشعر وحكمه ، وقد ظهر الطابع الإسلامى في الرسائل فقد حرص الكتّاب علي افتتاح رسائلهم بذكر اسم اللّه وحمده والصلاة والسلام علي نبيه r .

obeikandl.com